

# الحزن في الأغنية الشعبية الفلسطينية

بقلم نمر مرهات

وتمسكه بحقه وارضه مهما كانت التكبكات التي تحل به وكان لا بد للأغنية الشعبية الفلسطينية من ان تسجل كل ما طاف في وجدان الشعب وكل ما طفا على مشاعره الجماعية ازاء ذلك الغزو الصهيوني الاستعماري وهو يراه يتذرع بمنطق القوة والمفاجأة والغدر ويحبو على ارضه ثم يرتكض عليها منذ السنوات الاولى للانتداب حتى اليوم .

ويمكن اعتبار عام ١٩٣٧ - عام الثورة الفلسطينية والاضراب العام - نهاية المرحلة الاولى من الاتجاه الحزين في الغناء الشعبي الفلسطيني . تميزت هذه المرحلة بروح الانذار من الخطر الجاثم على ارض الوطن والمتمثل في الهجرة اليهودية ودعم السلطة المستعمرة لهم . وقد شاعت نفمة التحذير في اغانينا الشعبية . لقد كان ضمير الشعب يتوجس خيفة من تلك التحركات المشبوهة التي يقوم بها أولئك « الكفرة » . . . فمن مظاهرات لهم وتحرشات بالمقدسات الى مطالبات لا تستند الى اي حق . . الى تظاهرات عصابات ومنظمات ارهابية ذات مطامح ومطامع عدوانية . ويعبر الفنان الشعبي الفلسطيني عن موقفه من منطلق الكبرياء :

وانا العربي يا عيوني      تحت السيف رموني  
والله لافدي الصهيوني      واحمي بلادي فلسطين  
وتعبر الاحداث الدامية بوجدان الناس . . وترن  
في الاغنية نفمة الحزن والتحسب لما تخفيه الايام لذلك  
البلد الهاديء الوداع :

مسكينة يا فلسطين      وحزينة يا فلسطين  
شو قضيتي ايام حلوين

اما المرحلة الثانية فيمكن تحديدها ما بين عامي ١٩٣٧ و ١٩٤٨ . في هذه الفترة جرت احداث الحرب العالمية الثانية وكان النصر فيها لجانب الحلفاء الغربيين الذين اخذوا على عاتقهم بناء الوطن القومي اليهودي في فلسطين وتشجيع الهجرة اليهودية والتمهيد لقيام الدولة الصهيونية . وكان الانسان الفلسطيني يرقب بحذر بالغ تحركات الاستعمار البريطاني واعمال الارهاب اليهودية التي بدأت توجه ضد معسكرات الجيش البريطاني وجنوده ثم ضد القرى والمدن العربية . وفي اواخر الفترة بدأ الانسان الفلسطيني يستعد للدفاع عن نفسه وارضه في غمرة العسف البريطاني الذي استمر يحرم الفلسطينيين من شرف حمل السلاح ويتفاضى عن

تعزى ظاهرة الحزن في الاغنية الشعبية الفلسطينية الى العديد من العوامل ، فطابع الجد والتفني بأغاني البطولة والفخر والحماسة هو طابع ذلك الجزء من الوطن العربي - فلسطين - والذي اتسم نتاجه الثقافي بهذه السمة . ولم يكن الاستعمار وحده هو الذي بليت به الارض الفلسطينية فحسب مثلها مثل اقطار الوطن العربي الاخرى بل انها ابتليت بالصهيونية ايضا . فبينما كانت الشعوب العربية الشقيقة تحارب الاستعمار في شخص الجندي الاجنبي والقواعد العسكرية ، كان الفلسطينيون يقاومون الاستعمار في شخص القوات المحتلة والعصابات اليهودية التي ظلت تقوم باعمال الارهاب طيلة فترة الانتداب للحصول على امتيازات فائقة في الارض العربية الفلسطينية . وكان العربي الفلسطيني يلتفت لنفسه ليجد المحتل البريطاني من جهة واليهودي المدلل من جهة اخرى ينهشان كيانه ويفرقانه في دوامة من الفقر والرعب . ولم يكن ما يحصل بالشئ الذي سهل فهمه على الفلاح الفلسطيني فضلا عن ان متانة التخطيط الامبريالي الصهيوني لسلب الارض الفلسطينية وضرب الروح المعنوية عند الفلسطينيين بتجويعهم وارهابهم واحكام الطوق عليهم جعل الانسان الفلسطيني يروح تحت ضربة مدوخة مذهلة ما زال رغم مضي السنين يعاني منها . لقد وجد الفلاح الفلسطيني نفسه في تناقض غريب فهو واقع بين ماض حافل بالبطولة والانصارات وواقع لم يذق فيه غير طعم الهزيمة والاذلال . ولذلك سنرى ان طابع الاغنية الشعبية الفلسطينية البارز كان حزنا مشوبا بالدهول . وكان المغني الشعبي الفلسطيني لا يستطيع ان يصدق ما يجري بل ان ما يجري شئ عجيب يشبه الخرافات . وكيف له ان يصدق وان يسلم بان الناس الذين اعتاد ان يعتبرهم مجرد عصابات وشراذم وشذاذ افاق واقلية يهزمون الابطال الفرسان الذين ملأوا ساحة النضال « بالقنا وضرب السنان » .

لقد استمر الانسان الفلسطيني يرفض من جهة ويستخف من جهة اخرى بالكيان اليهودي على ارضه سواء في عهد الانتداب ام بعد احداث ١٩٤٨ . ولم يكن ليستوعب حجم القوة العدوانية التي ضربت مصر عام ١٩٥٦ واربع دول عربية عام ١٩٦٧ . وظل الانسان الفلسطيني على رفضه لنطق العدوان وعلى اصراره

ارهاب اليهود .

في المرحلة الثانية هذه تحدثت الاغاني الشعبية الفلسطينية عن النضال القومي المستمر الذي تجلى في سلسلة الثورات الفلسطينية كما تحدثت عن الإبطال الفلسطينيين والمعارك التي خاضوها وعن انتصاراتهم وما اوقعوه من خسائر في صفوف الاستعماريين كما في هذه « الطلعة من اغاني المسيرة :

هز الرمح بعود الزين

وانتو يا نشامى منين (١)

واحنا (٢) شباب فلسطين

والنعم والنعمتين

\*\*\*

في بلعا (٣) ووادي التفاح

صارت هجمة وضرب سلاح

يوم وقعة بيت امرين (٤)

تسمع شلع (٥) المرأتين

وقد اصبحت أحداث الثورات والنضال والبطولات الشعبية حديث الشاعر الشعبي الفلسطيني الذي اعتاد ان يطوف في دواوين القرى ومضافاتها وفي مقاهي المدن . وقد لعب الشاعر الشعبي (٦) الفلسطيني دورا طيبا في اذكاء روح النضال وتعميم الروح الثورية في طول البلاد الفلسطينية وعرضها : وهذه قصيدة للشاعر الشعبي محمود زقوت يلخص فيها الاحداث والاصطدامات : بمركة وادي التفاح ربح الجنة يا عالم فاح استشهد فيها الفلاح حط (٧) السنجة بالمرتين وقعة جرزيم وعيبال شيبت روس الاطفال انخذلت فيها الاندال بفضل القائد فوز الدين (٨) المنذوب (٩) في البلاغات قال ما وقع اصابات اعترف بجرح الضباط يعني الجند محجبن امانف القطارات صار موضة من الموضات وانقلاب الدبابات مع تشليح العسكر مرتين تريخ (١٠) عندك يا زمان ظلم وغدر الغريبين

(١) من أين . (٢) نحن

(٣) قرية بقضاء طولكرم في الضفة الغربية .

(٤) اسم معركة سميت باسم القرية .

(٥) صوت الانطلاق .

(٦) من الشعراء الشعبيين الفلسطينيين محمود زقوت الذي ولد بالجدل - غزة وعاش فترة طويلة في مدينة طولكرم ومحارب ذيب الذي ولد في جبع - رام الله وما زال فيها . وساقدم لقراء الاداب دراسة عنهما وعن دورهما في احياء الروح الوطنية الفلسطينية والتغني بامجاد النضال الفلسطيني .

(٧) وضع .

(٨) فوزي الفاوقجي احد قادة الجيوش الشعبية التي حاربت

في فلسطين عام ١٩٤٨ .

(٩) المنذوب السامي البريطاني .

(١٠) ارتخ ، سجتل .

ان الشاعر اذ يختتم قصيدته بذلك البيت الذي يضمنه ثورته وحقده على الاستعماريين انما يتجاوز كل المآسي التي حلت بالشعب الذي حمل السلاح لنيل استقلاله وحرية وهو يختصر آلام الشعب واحزانه بدعوة التاريخ لتسجيل « ظلم وغدر الغريبين » . لقد تحسست الاغنية الشعبية الفلسطينية في هذه المرحلة آلام الشيب الذي تطحنه الاحداث وهو يقف شبه اعزل امام الاستعمار البريطاني والغزو الصهيوني بإمكانياته الهائلة . وقد دأبت الاغنية الشعبية الفلسطينية على تثبيت صورة معينة للانسان الفلسطيني ، صورة البطل الذي يدفع الصخرة بيد واحدة ثم يخز صريع الواجب فتراه يفيض مهابة وتألقا حتى وهو على تراب الموت . والايات التالية توضح هذه الصورة التي تفيض بمعاني الرثاء لبطل صرعه جنود الاستعمار :

شفت ابو كباري (١١) بالسرايا ممددا

حوله العساكر ناصبه الميدان

شفته على تخت الرويد ممددا

والدم جاري مبلل القمصان

يا حيف سبع الغاب كرم امجدا

يصبح دفين بتربة الوهدان

شواربه جنح الغراب مرقددا

وعيوننه تلمع كبرق نيسان

كل البلد تبكي عليه وتمجددا

تبكي الرجال وتنحب النسوان

### مرحلة الندب

ووقعت النكبة عام ١٩٤٨ . وقامت دولة يهودية على انقراض الشعب الفلسطيني بعد قرار الامم المتحدة بتقسيم القطر . وبدلا من ان تحرر « الجيوش العربية السبعة » الارض من الفاصبين ذهل الانسان الفلسطيني وهو يرى ان الهدنة توقع وان اراضي جديدة تضاف للدولة اليهودية لم تكن في حدودها كما نص عليها قرار التقسيم . وتمر السنون والانسان الفلسطيني يلحق جراحه ويرنو الى ارضه المفتتة ويتلقى ضربات الحدود . وقد وجد نفسه هذه المرة مجرد « شعب من اللاجئين » تحت وصاية الدول العربية ويتلقى المعونة التي تهدف الى مجرد الحفاظ على الحياة من غائلة الجوع من الناس الذين اوصوا بتقسيم بلاده .

لم يكن الانسان الفلسطيني يستطيع ان يهضم ما حدث . كان الناس ينتظرون يوم الخامس عشر من ايار ليطردوا اليهود ، ويحرروا اراضيهم من تكالب الغرباء

- التتمة على الصفحة ٥٩ -

(١١) ابو اكباري هو المناضل الفلسطيني محمد محمود العدلي من قرية « بيتا » بقضاء نابلس وقد سجن في عكا في عهد الانتداب ونقل الى سجن نابلس ومن هناك فر الى غور الجفتلك بوادي الاردن مع زميله المناضلين قاسم ابو سليقة العقرباوي وحميده من طمون والقرى الثلاث عقربا وبيتا وطمون بقضاء نابلس في الضفة الغربية .

## الحن في الاغنية الفلسطينية

- تنمة المشور على الصفحة ١٥ -

الذين فرضوا انفسهم عليها . اما ما حدث فكان شيئاً غريباً عجيباً لم يجد الفنان الشعبي ازاءه سوى التفجع والدهول :

قال احوال الدهر خلطنا عجيباً  
انتصار الخصم علينا عجيباً  
وبهذا الوقت شفت لكم عجيباً  
سبع يا عرب في ثم (١٢) اربنا  
وتتفجر يبايع الحزن بهذه الكلمات :  
قال عتاباً وما يحظلك مذلة  
والشكوى غير للمولى مذلة  
الوبش اللي نجح والسبع ذلا  
وفرخ اليوم يصطاد العقاب

في هذه المرحلة نذب الشعب الفلسطيني حظه وتفجع على مصيره وعكست الاغاني الشعبية الدهشة الكبيرة من الهزيمة . لقد كانت مقاييس الشعب للاحداث تعتمد على المقارنة بين الكثرة والقلة وبين الرجال والانذال . وهذا « محارب ذيب » (١٣) يعاتب العرب عامة . وهو يقول لهم :

قيسوا بني اسرائيل كالفارسان  
التي كانت تفازيننا ونفزيها  
وهو يقول بكلمات تقطر بالمرارة اذ يتحدث عن تهديدات جولدا مائير للعرب وكيف تجرؤ « حرمة » على تهديد الملايين :

اي في حرمة سمها (١٤) جولدا مائير  
بتهدد في العرب اكبر تخطير  
لا يا رجال العرب هذا ما يصير  
حرمة بتهدد مية مليوناً

لم يكن ليفهم شعبنا ان مجموعة صغيرة منظمة من الناس تستغل اسلحة متنوعة من ادوات الحرب والاعلان قد فرضت الهزيمة على الملايين . كان ذلك شيئاً اكبر مما نستوعبه عام ١٩٤٨ والاسوا من ذلك ان عام ١٩٦٧ قد جاء دون ان نستوعب ذلك ! وهكذا ظل شعبنا يبكي مصيره ويرثي شهداءه . صارت الدار رمزا لما يكسد الانسان الفلسطيني عليه احزانه فهو يودعها ويتشوق اليها ويعدها بالشيد (١٥) والحن اذا عاد اليها :

جيت اودعك يا دار شملاي  
غريب امسح دموعي بشملاي  
انا ان طال الزمان وما رد شملاي  
عيوني من البكا بترشح دما

(١٢) فم . (١٣) الشاعر الشعبي الفلسطيني المعروف .

(١٤) اسمها . (١٥) الجير .

ويقول :

يا دار يا دار من عدنا كما كنا  
لاطليك يا دار بعد الشيد بالحن  
ويتفجع الانسان الفلسطيني على داره وهو يقارن ما كان بما هو كائن :

قال خسارة بعد العز نسكن الفيران (١٦)  
بلاد صحرا وشجرة ظل ما فيها  
لقد بكى الانسان الفلسطيني وندب ولكنه لم يستسلم . ظل الفنان الشعبي الفلسطيني يعني ليوم النصر والعودة . حاول ان يناقش اسباب الهزيمة وهو يرى ان ذلك كامن في تفرق العرب وعدم اتحاد كلمتهم وبذلك يضيف لمأساته مأساة جديدة . ان الانسان الفلسطيني ليبدا طالب تحرير وطالب وحدة وهو يربط الوحدة بالتحرير ويراهما امرين متلازمين . وفي ذلك يتحدث قائل هذا البيت من العتيا :

قال فساد العرب اكبر خسارة  
اسلي هالجمع ما هو خسارة  
على اللد وعلى الرملة خسارة  
يدوسوها العدا ونحن عرب  
ويصبح يوم التحرير حلماً جماهيرياً تهفو اليه قلوب الجماهير وتنتظره فهو اليوم الذي يفصل العار ويريل الهزيمة والمذلة . لقد تصور شعبنا فرصة التحرير محصورة في الزعيم ولذلك غنى للزعماء واهتز طربسا لتصريحاتهم وتحركاتهم وافتخر بهم . وهو تارة حزين ينادي على الزعيم المحرر المنتظر ، وتارة فخور مترقب :

يا ويلي وين الذي يحرق وطننا  
يا ذكره بالملك شمشع وطننا  
ولا بد يرتجع هو وطننا  
ولو نجوم السما بتسكب اطواب

\*\*\*

بذكرك يا بطلنا طرب راسي  
اسطوك باحياء الخصم راسي  
قال عدوك في البحر لو كان راسي  
بخيط العنكبوت بينسحب

ولم يصلنا من اغاني شعبنا في المنطقة المحتلة سوى تلك التي تتحدث عن المقاومة والاستبسال والصمود . ولا شك ان اخواننا هناك قد غنوا للالم وندبوا الضحايا التي سقطت في الجليل والمثلث والجنوب في مجاز كفرقاسم ومظاهرات الناصرة والرملة . وهناك علسى الارض الفلسطينية حيث تتكاتف عناصر شعبنا في الجليل والمثلث والجنوب وغزة والضفة الغربية لن تعدم الاغنية الشعبية الفلسطينية وسائل التعبير عن الموقف الجديد .

ما بعد حزيران ١٩٦٧

عندما حصلت نكبة ١٩٤٨ سمعت هذه الاغنية

(١٦) جمع غار . والبيت على لحن الشروفي .

التي تحدث بمرارة عن حالة الدل التي يعانها الفلسطينيون وهم يجدون انفسهم مضطرين للاصطفاف بطابور المؤن لاستلام مخصصات التموين من وكالة الامم المتحدة :

رحنا على دير عمار (١٧) اما فضيحة ومعيار وبصف المؤن نحتار يا رب افرجها علينا ولم يكن شعبنا ليفكر انه سيهجر منفاه الى منفى جديد وانه سيضطر ثانية للاصطفاف بطابور المؤن . كان في حزيران عام ٦٧ على موعد مع بياراته واداضيه ولم يكن ليحسب حساب الهزيمة والمذلة . وفجع الانسان الفلسطيني كما فجع كل عربي بهزيمة حزيران ٦٧ . وكان ذلك مصدرا لمزيد من الدهشة والذهول اذ تهزم الدول العربية ثانية . ويفر الناس من وجه الازهاب وتخرج جماعة جديدة من شعبنا تحت اسم النازحين . ويقف الحداء الفلسطيني سليم عساف في طابور المؤن ثم يعود ليفني للالم والمذلة :

طلعت على الوكالة (١٨) حتى اسجل عيالي  
النازح دب (١٩) العقال ورموني على الارضية  
يا حلالي يا مالي  
قالوا لي انت منين (٢٠) قتلهم من قضا جنين (٢١)  
واحنا من النازحين وحياة رب البرية  
يا حلالي يا مالي  
وقمت الريم (٢٢) حالي جمعوا علي العتالة  
حملت بيدي عقالي والكل يبظحك علي  
يا حلالي يا مالي

آجو (٢٣) الشرطة والامن العام  
وقالوا لي يا ابو بسام  
اقف ع حيلك (٢٤) وانهام  
يا ابن الضفة الغربية

يا حلالي يا مالي  
قلت له ما بدها تحوص قدامك اسمر منحوس  
بيقول لك ما بدها فلوس بدنا رجال حربجية  
يا حلالي يا مالي

وبعد نكبة حزيران ٦٧ تفتتح صفحة جديدة فسي تاريخ الاغنية الشعبية لا تختلف كثيرا عن ما سجلته الاغنية الشعبية بعد نكبة ١٩٤٨ . . . حين للعودة، ورجاء

(١٧) مخيم للاجئين الفلسطينيين يقع غربي مدينة رام الله بالضفة الغربية . وتحدث الفنان الشعبي الفلسطيني فسي قصييدة طويلة عن لجوئه لهذا المخيم ويصف الاصطفاف في طابور المؤن والمذلة التي يعانها من جراء ذلك .

(١٨) وكالة الامم المتحدة لاغثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين .  
(١٩) التي . (٢٠) من اين .

(٢١) المدينة المعروفة في الضفة الغربية بصمودها مدة طويلة بعد ١٥ ايار ١٩٤٨ والذي دافع عنها الجيش العراقي انداك وصد هجوما منها بعد ان دخلها الاسرائيليون والى جوارها تقع مقبرة الشهداء العراقيين . والجدير بالذكر ان القوات الاردنية دافعت دفاع الابطال عن هذه المدينة في معركة مشهورة بالدبابات وصدت الهجوم الاول الذي قام به الاسرائيليون .

(٢٢) اجمع . (٢٣) جاؤوا . (٢٤) انهض .

وتوسل من الله بالعون ، وتشبث بالزعامة العربية وانتظار ليوم التحرير . وبعد ان كان المفني الشعبي يتحسر على يافا واللد والرملة نسمع الحنين الى المدن الضائعة حديثا . . شوق لجنين ونابلس والقدس . والحنين الى القدس يستقطب اهتمام الفنان الشعبي باعتبارها البلد المقدس والمدينة الرئيسية في القطر المهزوم . ان الحنين للقدس مرتبط بالفزع من تدنيس المقدسات او لمجرد انها اصبحت في يد الاعداء « الكفرة » . . ويعكس هذا الانطباع هذا البيت من العتابا للحداء الفلسطيني « يوسف البرغوثي » المعروف بلقب الحزرق :

يا صخرة (٢٥) ع العرب بالصوت نادي  
اليهود استعملوك شبه نادي  
بعد ما كان عود الند نادي  
قتل دولابها واعطى قفا  
صحيح ان الانسان الفلسطيني عاد يجتر احزانه  
بعد هزيمة حزيران ٦٧ وصار لديه المزيد من التعقيدات التي تحيل حياته الى مأساة متصلة لكنه ظل على شموخه وكبريائه . فالامل رائده . امل بالعودة والوحدة ذلك الامل الذي لم تنل منه الاحداث والسنون وتشبث لا ينقطع بالارض :

كريم الله على الاوطان بنعود  
وهناك تكون وحدثنا عرب  
وظل الانسان الفلسطيني على شموخه وكبريائه  
فارادته لم تستسلم ، وتصميمه ظل على حاله . . . تصميم على العودة والتحرير والوحدة كما يبدو من هذه الشروقية للحداء الفلسطيني سليم عساف :

بادي باسم الله الواحد الديان  
من ذكر هذا الاسم فروا الشياطينا  
مهد عيسى واسراء النبي العدنان  
من ظلمكم يا غرب هبت براكيننا  
يا صخرة القدس كوني في رضا وامان  
واذا هجرناك الى الرحمن اشكيننا  
نحن عروبة من نسل بني قحطان  
وتاريخنا يعلمك احوال ماضيينا  
نحن يا قدس كلنا عرب شجعان  
اصرخي بصوتك ترى الان جينا  
من المحيط للخليج كلها عربان  
وحياة رب العرش الرحمن يهدينا

ذلك هو تصميم الانسان الفلسطيني ، وذلك هو الامل الذي يعيش عليه ، وكما تحطمت على صخرته غزوات الصليبيين سيتحطم الغزو الصهيوني وينتصر امل الملايين . وغدا عندما تنقشع غمامة الهزيمة ستتلاشى نفمة الحزن وسيبدع يرغول الفلسطيني احلى نفمات « الدلعونا وزريف الطول » .

نمر سرحان

وادي السير - عمان